الحج قبل الإسلام وفي صدر الإسلام

- دراسة مقارنة -

د. عليرضا طبيبي (الكاتب المسئول)
أستاذ، قسم علوم القرآن، عضو هيئة التدريس في كلية المعارف والفكر الإسلامي، جامعة طهران، إيران
tabibi.alireza@ut.ac.ir
د. السيد محمد الحسيني
أستاذ مساعد، قسم التاريخ الإسلامي، عضو هيئه التدريس في جامعة رازي في كرمانشاه، إيران
sm.hoseini@razi.ac.ir
مازن عزيز حبيب برغوثي
طالب دكتوراه، قسم التاريخ الإسلامي، كلية المعارف والفكر الإسلامي، جامعة طهران، إيران
mazin.aziz.habib@gmail.com

Pilgrimage Before Islam and in Early Islam: A Comparative Study

Dr. Alireza Tabibi (Corresponding author)
Professor , Department of Qur'anic Sciences , University of Tehran , Faculty Member at the Faculty of Islamic Knowledge and Thought , University of Tehran, Iran
Dr. Sayyed Muhammad Al-Husseini
Assistant Professor , Department of Islamic History, Faculty Member at Razi University in Kermanshah , Iran
MAZIN AZEEZ HABEEB BARGHUTHI
PhD Student , Department of Islamic History , Faculty of Islamic Knowledge and Thought , University of Tehran , Iran

الملخص:-

يتناول هذا البحث مقارنة بين شعيرة الحج في مرحلتي ما قبل الإسلام وصدر الإسلام، مع التركيز على أوجه التشابه والاختلاف بينهما من النواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية، فقبل الإسلام كان الحج طقسًا وثنيًا متنوعًا بين القبائل، حيث ارتبط بعبادة الأصنام وتقديم القرابين، مع وجود طقوس خاصة مثل الطواف العاري والتفاخر بالنسب، ووفرت الأشهر الحرم أمانًا مؤقتًا، مما ساهم في ازدهار التجارة والأسواق الكبرى مثل عكاظ وذي المجاز، فكانت القبائل تجتمع ليس فقط للحج، بل أيضًا لعقد التحالفات وممارسة النشاطات الثقافية، وفي المقابل جاء الإسلام ليعيد توحيد المناسك، فحُرّمت بعض الممارسات الجاهلية، وأُعيد للحج طابعه التوحيدي، حيث أصبح وسيلة للتقرب إلى الله بعيدًا عن الممارسات الوثنية.

اجتماعيًا، كان الحج قبل الإسلام مناسبة لعقد الاتفاقيات بين القبائل والتفاخر بالأنساب، بينما في الإسلام أصبح وسيلة لتعزيز الأخوة الإسلامية والمساواة بين المسلمين، أما اقتصاديًا فقد استفادت مكة من مواسم الحج بوصفها مركزًا تجاريًا بارزًا، وهو ما استمر في الإسلام، لكن ضمن إطار منضبط يحترم القيم الإسلامية ويمنع الاستغلال التجاري الجائر، كما لعبت قريش دورًا بارزًا في إدارة شؤون الحج قبل الإسلام، حيث استفادت من موقع مكة الاستراتيجي، لكن الإسلام أرسى نظامًا جديدًا قائمًا على العدل والمساواة في أداء المناسك، فالحج في الجاهلية كان شعيرة متأثرة بالموروث الوثني والمصالح القبلية، بينما في الإسلام تحول إلى عبادة خالصة لله تعالى تهدف إلى تحقيق التقوى وتعزيز الوحدة بين المسلمين، مع التأكيد على البعد الروحي والاجتماعي للحج في الإسلام مقارنة بوظيفته القبلية والاقتصادية في العصر الجاهلي.

الكلمات المفتاحية: الحج في الجاهلية، مناسك الحج، الأشهر الحرم، الطواف، التطور الديني والاجتماعي للحج.

Abstract:-

This research deals with a comparison between the Hajj ritual in the pre-Islamic and early Islamic eras, focusing on the similarities and differences between them in terms of religion, society and economy. Before Islam, Hajj was a diverse pagan ritual among the tribes, as it was associated with idol worship and offering sacrifices, with special rituals such as naked circumambulation and boasting of lineage. The sacred months provided temporary security, which contributed to the prosperity of trade and major markets such as Ukaz and Dhu al-Majaz. The tribes would gather not only for Hajj, but also to form alliances and practice cultural activities. In return, Islam came to reunify the rituals, so some pre-Islamic practices were forbidden, and Hajj was restored to its monotheistic character, as it became a means of drawing closer to God away from pagan practices. Socially, Hajj before Islam was an occasion to conclude agreements between tribes and boast about lineages, while in Islam it became a means to promote Islamic brotherhood and equality among Muslims. Economically, Mecca benefited from the Hajj seasons as a prominent commercial center, which continued in Islam, but within a disciplined framework that respected Islamic values and prevented unfair commercial exploitation. Quraysh also played a prominent role in managing Hajj affairs before Islam, as they benefited from Mecca's strategic location, but Islam established a new system based on justice and equality in performing rituals. Hajj in pre-Islamic times was a ritual influenced by pagan heritage and tribal interests, while in Islam it turned into a pure worship of God Almighty aimed at achieving piety and strengthening unity among Muslims, with emphasis on the spiritual and social dimension of Hajj in Islam compared to its tribal and economic function in the pre-Islamic era.

Key words: Hajj in pre-Islamic times , Hajj rituals, sacred months , circumambulation , religious and social development of Hajj.

المقدمة:ـ

يُعدُّ الحج من أقدم الشعائر الدينية التي مارستها المجتمعات العربية قبل الإسلام، حيث ارتبط بطقوس روحية واجتماعية وتجارية تعكس طبيعة المعتقدات السائدة آنذاك، فقد كان للعرب في الجاهلية مفهوم خاص للحج، حيث تركزت مناسكه حول الكعبة، لكنها اتخذت طابعًا يتماشى مع الموروث الديني الوثني الذي كان سائدًا في شبه الجزيرة العربية، فكانت القبائل العربية تنظر إلى الحج باعتباره مناسبة مقدسة، تمارس خلالها طقوسًا مثل الطواف حول الكعبة، وتقديم القرابين، والسعي بين الصفا والمروة، إلى جانب وقوفها عند بعض المواقع المقدسة مثل عرفات والمزدلفة، ومع ذلك لم تكن هذه الشعيرة ذات طابع موحّد، إذ كانت بعض القبائل تدخل عليها تعديلات وفقًا لمصالحها القبلية والدينية، وقد لعبت الأشهر الحرم دورًا رئيسيًا في ترسيخ مكانة الحج قبل الإسلام، حيث مثلت فترة من السلام المؤقت، يتمكن فيها الحجيج من أداء مناسكهم دون خوف من النزاعات القبلية، كما ساهمت هذه الأشهر في تنشيط الحركة التجارية، فكانت الأسواق الكبرى، مثل سوق عكاظ وذي المجاز، تشهد ازدهارًا ملحوظًا خلال هذه الفترات، وقد استغلت قريش مكانة الكعبة لتعزيز نفوذها السياسي والاقتصادي، حيث تولت إدارة شؤون الحج، وفرضت بعض الأعراف مثل "النسيء"، الذي سمح بتغيير ترتيب الأشهر الحرم بما يتماشى مع مصالحها.

ومع ظهور الإسلام، طرأت تغييرات جوهرية على مفهوم الحج، حيث أعاد الإسلام لهذه الشعيرة بعدها التوحيدي، ونقّاها من الممارسات الوثنية التي كانت تخلّ بطبيعتها التعبدية، فأصبحت مناسك الحج خالصة لله عز وجل، دون تقديم القرابين للأصنام أو ممارسة الطقوس الجاهلية التي أضفت عليه طابعًا قوميًا بدلًا من كونه شعيرة دينية جامعة، كما أكد الإسلام على قدسية الأشهر الحرم ومنع أي تلاعب بها، مما ساهم في إعادة تنظيم الحج وفق منظومة تشريعية متكاملة تهدف إلى تحقيق البعد الروحي والاجتماعي له، وخلال هذه الدراسة المقارنة بين الحج قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، من حيث المناسك والمعتقدات والوظائف الاجتماعية للحج في كلتا الفترتين سيتم تسليط الضوء على كيفية انتقال الحج من طقس قبلي متأثر بالمعتقدات الوثنية إلى فريضة إسلامية محكومة بتشريعات دقيقة، مما يعكس التحولات العميقة التي أحدثها الإسلام في بنية المجتمع العربي.

أهمية البحث:

يكتسب هذا البحث أهميته من كونه يتناول واحدة من أهم الشعائر الدينية في الإسلام، وهي فريضة الحج، وذلك من خلال مقارنتها بممارسات الحج قبل الإسلام. يساعد البحث في توضيح الفروقات الجوهرية بين الحج في العصر الجاهلي والحج الإسلامي، مما يسهم في فهم التحولات الدينية والاجتماعية التي أحدثها الإسلام في المجتمع العربي. كما أن البحث يعزز الدراسات التاريخية والدينية حول نشأة الطقوس الدينية وتطورها ضمن الإطار التشريعي الإسلامي.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى دراسة وتحليل شعيرة الحج قبل الإسلام، ومقارنتها بالحج في صدر الإسلام، من خلال تسليط الضوء على الفروقات في المناسك والرموز والدلالات الدينية والاجتماعية. كما يسعى البحث إلى بيان كيف أسهم الإسلام في تصحيح الممارسات الخاطئة التي ارتبطت بالحج الجاهلي، وإعادته إلى صورته التوحيدية.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في وجود اختلافات جوهرية بين طقوس الحج قبل الإسلام وبعده، مما يطرح تساؤلات حول مدى تأثر الإسلام بالممارسات الجاهلية، وأوجه التغيير التي طرأت على مناسك الحج بعد الإسلام، ومدى تأثير هذه التحولات على البنية الدينية والاجتماعية للمجتمع العربي.

السؤال الرئيسي:

كيف اختلفت شعيرة الحج قبل الإسلام عن شعيرة الحج بعد الإسلام، وما هي التحولات التي طرأت عليها؟

الأسئلة الفرعية:

١. ما هي الطقوس والممارسات التي كانت سائدة في الحج قبل الإسلام؟
٢. كيف ساهمت قريش في تنظيم الحج واستغلاله دينيًا واقتصاديًا قبل الإسلام؟

٣. ما هي التعديلات التي أدخلها الإسلام على مناسك الحج؟

٤. كيف أثر الإسلام على البعد الروحي والاجتماعي للحج؟

٥. ما دور الأشهر الحرم في تنظيم الحج قبل الإسلام وبعده؟

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، حيث يتم تتبع أصول الحج في العصر الجاهلي وتحليل الطقوس التي كانت تمارس آنذاك، ثم مقارنتها بالحج في صدر الإسلام من خلال المصادر التاريخية والفقهية. كما سيتم توظيف المنهج المقارن لدراسة الفروقات الجوهرية بين الحج في الفترتين، وتوضيح أثر التغيرات الدينية في إعادة تشكيل معالم هذه الشعيرة. وسيتم الاعتماد على مصادر أولية، مثل كتب التاريخ الإسلامي والمصادر الفقهية والتفاسير، بالإضافة إلى الدراسات الحديثة التي تناولت الموضوع من زوايا مختلفة.

المبحث الأول

الحج قبل الإسلام

كان الحج في الجاهلية في مكة يُقام كجزء من الطقوس الدينية والثقافية التي كانت تمارسها القبائل العربية المختلفة، وكانت هذه الطقوس تتمحور حول الكعبة[١] التي اعتُبرت مركزًا دينيًا مقدسًا منذ أزمنة بعيدة، إذ ورد في المصادر التاريخية أن العرب قد ورثوا تقديس الكعبة عن أجدادهم من أتباع الديانات الحنيفية والوثنية[٢].

كان الحج في الجاهلية يتم بشكل موسمي يتوافق مع الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، حيث تتوقف الحروب والنزاعات بين القبائل[٣]، ما يسمح للعرب بالسفر إلى مكة بأمان لأداء الشعائر الدينية والتجارية في الأسواق التي تقام على هامش موسم الحج، مثل سوق عكاظ[٤] وذي المجاز[٥]، إذ كان لهذه الأسواق دور كبير في ازدهار مكة تجاريًا وثقافيًا، حيث تُلقى فيها القصائد حيث التلاقح الثقافي في هذه اللقاءات الموسمية المنظمة وتُعقد الاجتماعات السياسية بين القبائل وتتم البيوع والمقايضات التجارية[٦].

من الناحية الدينية، لم يكن للحج مفهوم موحد، بل كانت كل قبيلة تؤدي طقوسها الخاصة، حيث كان البعض يطوف حول الكعبة، بينما يمارس آخرون طقوسًا مثل الذبح عند الأصنام أو تقديم القرابين في أماكن محددة، وكان العرب يعتقدون أن الأصنام المقامة داخل الكعبة وحولها تمثل شفعاء لهم عند الله، وهو ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[٧]، وقد ورد أن الكعبة كانت تضم نحو ٣٦٠ صنمًا تمثل مختلف آلهة العرب[٨]، ومن أبرزها هبل واللات والعزى ومناة، ومن الممارسات التي ارتبطت بالحج قبل الإسلام الطواف حول الكعبة وهم عراة، حيث كانوا يرون أن الملابس التي ارتدوها أثناء ارتكابهم للذنوب لا ينبغي أن تلبس عند الطواف، فيخلعونها ويطوفون عراة أو يشترون ثيابًا مقدسة من قريش، التي كانت تحتكر هذا الامتياز، وقد ورد في الحديث أن الإسلام نهى عن هذا الفعل، فقد دعا النبي ﷺ الإمام علي عليه السلام، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان"[٩].

كما كانت بعض القبائل تؤدي السعي بين الصفا والمروة ولكن بمفهوم مختلف عما جاء به الإسلام لاحقًا، حيث كانا مرتبطين بأسطورة تتعلق بإساف ونائلة، وهما صنمان يعتقد العرب أنهما تحجرا عند الصفا والمروة عقوبة على فعلهما الآثم في الكعبة[١٠]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الممارسة مؤكداً شرعية السعي بعد تطهيره من المعاني الوثنية في قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[١١]، أما فيما يتعلق بالوقوف بعرفة، فكانت قريش تمتنع عن الوقوف بعرفة على عكس بقية العرب، حيث كانوا يرون أنهم أهل الحرم ولا ينبغي لهم مغادرته، فكانوا يكتفون بالوقوف عند مزدلفة، وهو ما عدله الإسلام لاحقًا وجعل الوقوف بعرفة من أهم أركان الحج[١٢].

بذلك، كان الحج قبل الإسلام مزيجًا من العادات الدينية الوثنية والتقاليد الاجتماعية والتجارية، وكان يفتقر إلى الوحدة في الشعائر أو الهدف الروحي الذي جاء به الإسلام لاحقًا، إذ أحدث تغييرات جوهرية في هذه الممارسات، فأعاد توحيد الحج

وجعله شعيرة قائمة على التوحيد الخالص لله، مع الحفاظ على بعض الطقوس بعد تطهيرها من المفاهيم الوثنية.

المبحث الثاني

الحج في صدر الإسلام

بعد أن أسس النبي محمد ﷺ الإسلام، حدث تحول جذري في معالم مناسك الحج، فقد جاء الإسلام ليعيد تشكيل مفهوم الحج، ليجعله عبادة دينية خالصة تتسم بالتوحيد، وتتنافى مع الممارسات الوثنية التي كانت سائدة في الجاهلية، ففي عصر الجاهلية، كان الحج يتخذ طابعًا متنوعًا ويختلف من قبيلة إلى أخرى، وكان يكتنفه العديد من الطقوس التي تتعلق بالأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها، وكان الطواف حول الكعبة يتم غالبًا بشكل غير لائق كأن يطوف بعضهم عراة أو يمارسون طقوسًا غير دينية(١٣)، لكن الإسلام جاء ليضع نهاية لتلك الممارسات، ويُعيد الحج إلى جوهره العبادي الخالص الذي يهدف إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، ففرض على المسلمين طقوسًا واضحة ومعروفة أصبحت في قلب العبادة الإسلامية، وضمن من خلالها تعزيز التوحيد وتهذيب النفوس، من أبرز ما فعله النبي صلى الله عليه وآه وسلم في تنظيم الحج هو تحديد طقوسه الخالصة وتوجيه المسلمين نحو عبادة موحدة، فبدأ المسلمون في أداء مناسك الحج وفقًا لأركان محددة، وأصبح الحج فريضة موحدة تمثل جزءًا لا يتجزأ من أركان الإسلام الخمسة، كان من بين هذه الأركان الإحرام، الذي يعد بداية الدخول في المناسك، ويمثل بداية تطهير القلب والجسد من الشوائب، ففي الجاهلية كان العرب يأتون إلى مكة بألبسة متنوعة، بعضها كانت مزخرفة وتدل على الطبقات الاجتماعية المختلفة أو كانت ملابس تكرس التفاخر والتباهي، لكن الإسلام جاء ليبطل هذه الفروقات، فقد أوجب على الحاج أن يرتدي ملابس بسيطة تتسم بالتواضع ولا تميز بين الناس، كإشارة إلى أن العبادة لا تقوم على التفريق بين الأفراد بناء على مكانتهم أو ثرواتهم(١٤)، وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"(١٥)، فكل حاج يلبس الإحرام بنية طاهرة خالصة لله، وهذا ما يميز الحج في الإسلام عن باقي الطقوس الوثنية التي كانت تتم من باب التقليد أو التفاخر(١٦).

ثم تأتي مرحلة الطواف حول الكعبة، التي كانت في الجاهلية تحمل طابعًا وثنيًا، حيث كان العرب يطوفون بالكعبة وهم عراة أو يرتكبون بعض الطقوس التي تتناقض مع تعاليم التوحيد، أما في الإسلام، فقد أعاد النبي صلى الله عليه وسلم للطواف معناه الحقيقي كعبادة لله سبحانه وتعالى، وأصبح الطواف حول الكعبة من أهم مظاهر التوحيد في الإسلام، فالأمة الإسلامية كلها تطوف بنفس الطريقة، ولا فرق بين غني وفقير، ولا بين عربي وعجمي. وقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: " الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أحل فيه المنطق"(١٧)، مما يدل على أن الطواف هو في جوهره نوع من الصلاة التي يقترب فيها المسلم إلى ربه.

أما السعي بين الصفا والمروة، فقد كان في الجاهلية يرتبط ببعض الممارسات التي لم يكن لها أي أساس من الإيمان بالله سبحانه وتعالى، لكن الإسلام حول السعي بين الصفا والمروة إلى عبادة رمزية تؤكد التوكل على الله والاعتماد عليه في الأوقات الصعبة، السعي بين الجبلين هو إحياء لقصة هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام، التي سعت بحثًا عن الماء لابنها إسماعيل، في موقف يعكس الصبر والإيمان بالله(١٨)، وفي القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾(١٩)، مما يعني أن السعي بين الصفا والمروة هو شعيرة عبادية تتصل بقيم التوحيد والإيمان بالله سبحانه وتعالى.

وإذا انتقلنا إلى ركن الوقوف بعرفة، نجد أنه من أهم أركان الحج التي تميزت بشكل جوهري عن ممارسات الجاهلية، ففي تلك الفترة كان العرب يقيمون في عرفة ويشاركون في طقوس تتعلق بالأصنام، ولكن مع دخول الإسلام أصبح هذا اليوم يومًا للتوبة والمغفرة. فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " الحج الاكبر يوم عرفة"(٢٠)، ما يدل على أن الوقوف في عرفة هو ركن الحج الأعظم، الذي يعكس توبة المسلم واستغفاره لذنوبه. يوم عرفة هو يوم رحمة الله ومغفرته(٢١).

أما رمي الجمار، فقد كان في الجاهلية يرتبط بتقديم القرابين للأصنام، وكان جزءًا من طقوس وثنية تهدف إلى إرضاء الآلهة المزعومة(٢٢)، لكن في الإسلام أصبح رمي الجمار عبادة تمثل رفض الشيطان ووساوسه. فالحجاج يرمون الجمار في منى كرمز للابتعاد عن إغواء الشيطان ورفض مغرياته، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة

لإقامة ذكر الله"[٢٣]، مما يشير إلى أن هذا الطقس ليس مجرد فعل مادي، بل هو رمز للثبات على الحق والتمسك بالإيمان بالله، والتأكيد على أن المسلم يقف في وجه الشيطان ولا يقبل وساوسه أو إغراءاته، وبذلك فقد غير الإسلام بشكل جذري مفهوم الحج، وجعله عبادة روحية وعبادة جسدية في آن واحد، حيث يلتقي المسلمون من جميع بقاع الأرض، حاملين معهم نيات طاهرة وإيمانًا صادقًا، يتوجهون إلى الله في عبادة واحدة موحدة، فمن خلال إعادة تنظيم مناسك الحج، أكد النبي ﷺ أن هذا الركن العظيم من أركان الإسلام ليس مجرد فريضة جسدية، بل هو مناسبة للتوبة والمغفرة والتوحيد، ووسيلة لتهذيب النفس والتقرب إلى الله، ليكتمل بذلك إيمان المسلم، قال ﷺ: " تارك الحج وهو مستطيع كافر"[٢٤]

المبحث الثالث

التطور والتغيير بين الحج في الجاهلية وفي صدر الإسلام

شهد الحج تحولًا جذريًا مع بزوغ فجر الإسلام، حيث انتقل من كونه طقوسًا غير منظمة ومتفرقة إلى شعيرة دينية محكمة تتسم بالتوحيد والروحانية، كان الحج في الجاهلية طقسًا يؤدى بطرق شتى تختلف بين القبائل، وتختلط فيه العادات الوثنية بالممارسات الدينية، فتشوبه المظاهر الشركية التي تبعده عن الغاية الحقيقية لعبادة الله، أما في صدر الإسلام، فقد وضع النبي محمد ﷺ الأسس الواضحة لهذا الركن العظيم، فجعل منه عبادة خالصة تهدف إلى تطهير النفس، وتقوية الصلة بالله، وتوحيد الأمة الإسلامية في شعيرة موحدة، تسير وفقًا لأوامر الله تعالى وتعاليمه[٢٥]، فقد كان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة لكنهم لم يكونوا يؤدون مناسك موحدة، بل كانت لكل قبيلة طريقتها الخاصة في أداء الطواف والسعي، فضلاً عن أن بعض القبائل لم تكن تؤمن بأهمية الوقوف بعرفة، بل كانت قريش على سبيل المثال ترى أنها أهل الحرم فلا ينبغي لهم مغادرة مكة للوقوف في عرفة، وكانوا يطوفون بالكعبة عراة[٢٦] وقد جاء الإسلام ليبطل هذا السلوك، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[٢٧]، فنزل هذا الحكم ليؤكد أن الطواف يجب أن يكون في هيئة تليق بالعبادة، وأن الإسلام جاء ليهذب الشعائر ويجعلها مرتبطة بالطهارة والوقار، كما كانت الأصنام تحيط بالكعبة، وكان الحجاج يأتون لتقديم القرابين إليها والتقرب بها إلى الله، وعندما فتح النبي ﷺ مكة، طهّر الكعبة من هذه الأصنام وأعلن أن الحج هو لله

وحده، فقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢٨]، فأصبح الحج يهدف إلى تحقيق العبودية الخالصة لله، والابتعاد عن كل مظاهر الشرك والجاهلية، ومن أعظم الإصلاحات التي جاء بها الإسلام في الحج، فرض الإحرام بملابس موحدة خالية من أي تمييز بين الناس، وهو ما يعزز مفهوم المساواة بين المسلمين، فالإحرام يجعل الحجاج سواء أمام الله، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين عربي وأعجمي، مصداقًا لقول النبي ﷺ: "لا فضل لعربي على أعجمي، إلا بالتقوى"[٢٩]، وهذه الوحدة التي فرضها الإحرام تعكس المبدأ الأساسي للحج في الإسلام، وهو أن الناس جميعًا عباد لله وحده، لا يميزهم إلا تقواهم وأعمالهم الصالحة، أما الطواف حول الكعبة، فقد كان في الجاهلية مشوبًا بأفعال وثنية، لكن الإسلام أبطل ذلك، قال النبي ﷺ: ""إنما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله"[٣٠]، فأصبح الطواف تعبيرًا عن إخلاص العبودية لله، وتذكيرًا بعظمة هذا البيت الحرام الذي رفع قواعده نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، كما كان الوقوف بعرفة في الجاهلية لا يتم وفق قواعد محددة، بل كانت بعض القبائل ترفض الوقوف فيه، فجاء الإسلام ليؤكد أن الوقوف بعرفة هو الركن الأعظم في الحج، حيث قال النبي ﷺ: "الحج عرفة"[٣١]، فكان هذا التحديد بمثابة إعلان أن الحج ليس مجرد عادات أو تقاليد، بل هو عبادة موحدة لها أركان ثابتة، تحقق للمسلمين الانسجام في تأدية المناسك، أما رمي الجمار، فقد كان في الجاهلية يتم بأسلوب يختلف عن المقصد الإسلامي، فقد كان البعض يعتقدون أن الرجم مرتبط بطقوس للتخلص من الأرواح الشريرة، فجاء الإسلام وجعل رمي الجمار رمزية لمقاومة وساوس الشيطان، وذلك إحياءً لقصة نبي الله إبراهيم عليه السلام، عندما حاول الشيطان أن يوسوس له أثناء تنفيذ أمر الله بذبح ابنه إسماعيل، فرماه إبراهيم بالجمار ليطرده، ويقول الله تعالى في ذلك: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٣٢]، ومن هنا أصبح رمي الجمار تدريبًا رمزيًا على مقاومة نزغات الشيطان في الحياة اليومية، وتأكيدًا على إيمان المسلم واستقامته، كما أن الهدف الأساسي من الحج في الإسلام يتجاوز مجرد أداء المناسك، فهو رحلة روحية تهدف إلى تنقية القلب من الذنوب، وتذكير المسلم بضرورة الاستقامة والعودة إلى الله، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة بقوله: "من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته

أمه"[٣٣]، فالحج هو تطهير للنفس، ووسيلة لمغفرة الذنوب، وفرصة للإنسان ليبدأ حياة جديدة عامرة بالإيمان والطاعة، ومن خلال كل هذه التغييرات، أصبح الحج في الإسلام رحلة روحية عظيمة، تختلف تماماً عن تلك الطقوس الوثنية التي كانت تؤدى في الجاهلية، فقد حوّل الإسلام الحج من كونه مجموعة من العادات القبلية إلى عبادة عالمية تجمع المسلمين من جميع أنحاء الأرض، في وحدة إيمانية تعكس التوحيد الخالص لله، وأصبح كل حاج مهما كانت خلفيته أو موطنه، يقف بجانب إخوانه المسلمين بنفس الهيئة، ويؤدي نفس الشعائر، ويتوجه بقلب خالص إلى الله طالباً منه المغفرة والرحمة.

الخاتمة:ـ

في ختام هذا البحث حول الحج قبل الإسلام وفي صدر الإسلام مقارنة فقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج كان من أبرزها:

- بيّنت الدراسة استمرارية الحج كظاهرة دينية فعلى الرغم من الاختلافات الجوهرية، فإن الحج كان موجوداً قبل الإسلام، لكنه ارتبط بممارسات وثنية وتحريفات أضافتها القبائل العربية على مدار الزمن.
- أظهرت الدراسة الاختلاف في الطقوس والمناسك فتميز الحج الجاهلي بطقوس متأثرة بالمعتقدات الوثنية، مثل الطواف عراة حول الكعبة، وتقديم القرابين للأصنام، وتغيير الأشهر الحرم عبر نظام النسيء، ومع ظهور الإسلام، تمت إعادة توجيه هذه الطقوس نحو التوحيد، فأُبقي على بعض الشعائر كالسعي والطواف ورمي الجمرات، بينما أُلغيت الممارسات المخالفة لعقيدة التوحيد.
- أظهرت الدراسة إعادة تصحيح مفهوم الأشهر الحرم ففي العصر الجاهلي، كانت الأشهر الحرم تُستخدم لتنظيم التجارة والتوقف عن القتال، لكنها شابها التلاعب من خلال النسيء، مما أتاح لبعض القبائل التحايل على تحريم القتال وجاء الإسلام ليعيد للأشهر الحرم قدسيتها الحقيقية، حيث حرّم النسيء، وأكد على حرمة القتال فيها إلا في حالات الدفاع المشروع.
- بيّنت الدراسة الدور الاقتصادي للحج إذ استفادت قريش من الحج الجاهلي لتحقيق مكاسب اقتصادية عبر استقطاب الحجاج إلى مكة، حيث كانوا يجلبون

معهم التجارة ويشاركون في الأسواق الكبرى مثل عكاظ وذي المجاز، وفي الإسلام، استمر البعد الاقتصادي للحج، لكنه أصبح وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي والروحي، بعيداً عن الاستغلال التجاري الذي كانت تمارسه قريش.

- أوضحت الدراسة تحول الحج من طقس قبلي إلى شعيرة دينية عالمية، فقبل الإسلام، كان الحج يمارس ضمن إطار قبلي، وكانت بعض القبائل تُحرم على غيرها دخول مكة أو أداء بعض المناسك، ومع مجيء الإسلام، أصبح الحج شعيرة عالمية مفتوحة لجميع المسلمين، بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية أو الاجتماعية، مما عزز مفهوم الوحدة الإسلامية.
- بيّنت الدراسة تأثير الإسلام على البعد الروحي للحج، ففي الجاهلية، كان الحج يمارس كجزء من الطقوس التقليدية، لكنه لم يكن يحمل بعداً روحيًا عميقًا، وبعد الإسلام، أصبح الحج ركنًا من أركان الدين، مرتبطًا بالتوبة والتجرد من الذنوب، مما أضفى عليه بُعداً إيمانيًا يتجاوز الطابع الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يطغى عليه في الجاهلية.

التوصيات:

- تعزيز الفهم التاريخي للحج في إطار الدين الإسلامي وهو ما سيساعد في إظهار الفارق بين الطقوس الوثنية وتحويلها إلى عبادة تُعزز من القيم الروحية والتوحيد.
- التركيز على استثمار البُعد الروحي للحج في العصر الحديث والتأكيد على أن الحج ليس مجرد رحلة تجارية أو اجتماعية، بل هو فرصة للتوبة والتجديد الروحي، بعيداً عن الممارسات التي قد تفرغ هذه الشعيرة من مضمونها الإيماني.
- تطوير الدراسات المتعلقة بالآثار الاقتصادية والاجتماعية للحج فيمكن أن تساهم هذه الدراسات في فهم كيفية توجيه الموارد بشكل أمثل لتعزيز الفوائد الاقتصادية والاجتماعية لهذه الشعيرة.

هوامش البحث

(١) الكعبة: البيت المربع، وجمعه كعاب، والكعبة، البيت الحرام، منه، لتكعيبها أي تربيعها، وقالوا: كعبة البيت فأضيف، لأنهم ذهبوا بكعبته إلى تربع أعلاه، وسمي كعبة لارتفاعه وتربعه، وكل بيت مربع، فهو عند العرب كعبة. ينظر: محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب،ج١، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، ص٧١٨.

(٢) محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤، ص٢٦٤.

(٣) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ص١٠٣.

(٤) سوق عكاظ: سوق عامة من أسواق العرب في الجاهلية، كانت تجتمع فيها القبائل مدة عشرين يوما في شهر ذي القعدة كل سنة بموضع بين نخلة والطائف، يبعد عن مكة ثلاثة أيام، وكان الشعراء يحضرون سوق عكاظ ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر. ينظر: عمرو بن بحر الجاحظ، الرسائل الأدبية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ه، ص٢٤٣.

(٥) ذي المجاز: موضع عند عرفات ويقال بمنى كان يقام به سوق العرب في الجاهلية. ينظر: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٢، دار الكتب الإسلامية، إيران،١٣٩٠ه، ص١٧٥.

(٦) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة، ١٩٩٤، ص٤٨٩.

(٧) القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية ٣.

(٨) محمد رشيد رضا، رحلة الحجاز، مجلة المنار، العدد٢٠، ١٩١٧م، ص١٠٨.

(٩) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، السيرة النبوية، ج٢، تح: طه عبد الرؤف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ص٥٤٦.

(١٠) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧، ص٢٠٨.

(١١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٥٨.

(١٢) محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي، المحبر، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٤٢، ص٣١٩.

(١٣) توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص٢٩٩.

(١٤) علي علي صبح، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١ه، ص٢٩٩.

(١٥) محمد بن الحسين الطوسي، الأمالي، ج٢، دار الثقافة، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ص٢٠٦.

(١٦) دروزة محمد عزت، التفسير الحديث، ج٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٣ه، ص٣٥٦.

(١٧)إحسائي ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، ج١، انتشارات سيد الشهداء (ع)، قم، الطبعة الأولى ١٤٠٥، ص٧٩.

(١٨) أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل الروياني، بحر المذهب، ج٣، تح: طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص٤٩٧.

(١٩) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٥٨.

(٢٠) محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المشرفة، الطبعة الثانية، ١٤١٤ه، ص٢٤٦.

(٢١) محمد مصطفى المقرئ، لو تكلمت المشاعر، مجلة البيان، العدد١٨٤، ٢٠٠٣م، ص٦.

(٢٢) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١١، دار الساقي، بيروت، الطبعة الرابعة٢٠٠١م، ص٣٨٥.

(٢٣) محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ج٣، تح: إبراهيم عطوة عوض دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص٢٣٧.

(٢٤) الصدوق أبى جعفر محمد بن على بن الحسين القمي ابن بابويه، من لا يحضره الفقيه، ج٢، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ص١٦.

(٢٥) خورشيد، إبراهيم زكي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج١٦، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص٥٠٢٨.

(٢٦) توفيق برو، تاريخ العرب القديم، ص٢٩٩.

(٢٧) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٩٦.

(٢٨) القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية ٨١.

(٢٩) محمد بن علي ابن محمد الشوكاني، نيل الأوطار، ج٥، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧٣، ص٩٩.

(٣٠) محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ج٣، تح: إبراهيم عطوة عوض دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص٢٣٧.

(٣١) إحسائي ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، ج٢، ص٢٤.

(٣٢) القرآن الكريم، سورة الصافات، الآية ١٠٣-١٠٥.

(٣٣) الطبرسي، ميرزا حسين النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج٨، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص٢٨.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

١. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧.

٢. أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل الروياني، بحر المذهب، تح: طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.

٣. أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٢، دار الكتب الإسلامية، إيران، ١٣٩٠ه.

٤. إحسائي ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، انتشارات سيد الشهداء عليه السلام، قم، الطبعة الأولى ١٤٠٥.

٥. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة، ١٩٩٤.

٦. توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١.

٧. خورشيد، إبراهيم زكي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.

٨. دروزة محمد عزت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٣ه.

٩. شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٠. الصدوق أبى جعفر محمد بن على بن الحسين القمي ابن بابويه، من لا يحضره الفقيه، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة.

١١. عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، السيرة النبوية، تح: طه عبد الرؤف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٢. علي علي صبح، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

١٣. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، الطبعة الرابعة٢٠٠١م.

١٤. عمرو بن بحر الجاحظ، الرسائل الأدبية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

١٥. محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤.

١٦. محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المشرفة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

١٧. محمد بن الحسين الطوسي، الأمالي، دار الثقافة، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٨. محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي، المحبر، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٤٢.

١٩. محمد بن علي ابن محمد الشوكاني، نيل الأوطار، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧٣.

٢٠. محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تح: إبراهيم عطوة عوض دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٢١. محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٢٢. محمد رشيد رضا، رحلة الحجاز، مجلة المنار، العدد٢٠، ١٩١٧م.

٢٣. محمد مصطفى المقرئ، لو تكلمت المشاعر، مجلة البيان، العدد١٨٤، ٢٠٠٣م.

٢٤. ميرزا حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.